قضيـة تـشغل الـرأي العـام إلـى جـانب الأمن والاقتـصـاد والـسيـاسـة

استهـداف الكفـاءات العـراقيـة.. من يـوقف نـزف الـوطن واوجـاعه؟

ثـروات نـادرة يهـدرهـا الـرصـاص والهجـرة من دون معـالجـات وردع

كتـابـة: عبـد الـرحمن عنـاد

الكفـــاءات تـتـحـــدث

ان عمليات استهداف العقول العراقية دفعت إلى هجرة علمية خطرة لم يسبق ان شهدها العراق من قبل، وان التعرف على المقصود بالعقول العراقية وتلمس الدوافع الكامنة والمحرضة على هجرتها سيمكننا من تسليط الضوء على هذه المشكلة الوطنية والقومية، لانها ثروة ثمينة لابد من الحفاظ عليها والعمل لدفع تلك العقول العراقية للهجرة المعاكسة إلى العراق.

د. عماد علو

تنفذ بحق كفاءاتنا العلمية حملة منظمة ولا بد من ان نعمل ونناشد المسؤولين لايلاء الموضوع الجدية والاهمية لمكافحة العنف ضد ملاكاتنا الطبية والعلمية والحفاظ على تلك الثروة ووضع حد للنزف الدموي لتلك الشريحة، وعدم اجبارها على مغادرة العراق.

د. اكرم الشيخلي

ان هناك جهات تسعى للافادة من خبرات العراقيين لان لدى العراق قابليات علمية كبيرة في مختلف الاختصاصات وهم الثروة الحقيقية للعراق وبمقدورهم ان يعيدوا ما دمر، وان البحث عن اسباب استهداف الاساتذة والعلماء والمفكرين يقودنا إلى البحث عن اسباب استهداف العراق اصلاً.

د. علي الهاشمي

***اليونسكو والصحة: استشهاد (٢٨٠) استاذاً جامعياً و(٢٠٠) طبيب واختطاف (٤٠٠) وهجرة آلاف العقول في مختلف التخصصات العلمية والطبية والفكرية.**

هجرة العقول.. لغة وتاريخاً

تعني الهجرة من الناحية اللغوية خروج المرء من بلده إلى بلد آخر ويسمى مهاجرا عندما يرتحل ليعيش في أرض غير التي اعتادها بفعل الظلم أو طلباً للأمن والعدل والعيش بيسر أو اطمئنان ديني أو سياسي، وهذا ما ظهر في حقب متباعدة من التاريخ، ولنا في هجرة الرسول الكريم محمد (ص) مثال يذكر حتى اليوم، وابتدأ التاريخ الهجري عند العرب والمسلمين بذلك اليوم المبارك.

وقد ابتدع البريطانيون مصطلح (هجرة العقول أو الكفاءات) عندما وصفوا خسارتهم في السنوات الاخيرة للعلماء والمهندسين والاطباء المهاجرين إلى الولايات المتحدة، برغم ان ٣٤٪ من الاطباء العاملين فيها هم من العرب، وصار المصطلح يطلق على جميع الذين تلقوا تعليماً عالياً وتدريباً راقياً وتركوا بلدانهم إلى بلدان أخرى، واعتبرت (اليونكسو) ان هجرة العقول هو نوع شاذ من انواع التبادل العلمي بين الدول يتسم بالتدفق في اتجاه واحد هو الدول المتقدمة، أو ما يعرف بالنقل العكسي للتكنولوجيا، لأن هجرة الكفاءات هي عملياً نقل مباشر لأحد أهم عناصر الانتاج آلا وهو العنصر البشري.

وعموماً يقصد بهجرة العقول نزوح حملة الشهادات الجامعية العلمية والتقنية والفنية، وحتى الفنانين والشعراء والكتاب والمؤرخين والسياسيين والمحامين وأصحاب المهارات والمواهب والمخترعين. وقد بدأت هذه الظاهرة على المستوى العربي منذ القرن التاسع عشر وبالذات من سوريا ولبنان والجزائر باتجاه فرنسا والامريكيتين وازدادت الهجرة العربية في القرن العشرين وبالتحديد بين الحربين العالميتين، وفي النصف الثاني من القرن العشرين هاجرت نسبة تتراوح بين ٢٥٪ - ٥٠٪ من الكفاءات العربية مغادرة اوطانها.

كان استشهاد احد معارفي برصاص الغدر قبل شهور، وهو متخصص في الطب النفسي ومسؤول في وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، موجعاً بالنسبة لي جعلني اقترب باحساس ذاتي مؤلم من حافة الهاوية التي تدفعنا إليها جهات متعددة، متباينة الوسائل موحدة الهدف، لكي أرى الحقيقة المؤلمة بعين المبتلى شخصياً، وأسترد في ذاكرتي الاسماء من أساتذة الجامعات والاطباء والمهندسين والمتخصصين في شتى المعارف والعلوم بدرجة أو أخرى بحكم المهنة والزمن والمتابعة ممن تساقطوا برصاص ومتفجرات الإرهاب والجريمة المنظمة والجهل والارهاب، وأخذت قطع نعيهم السوداء طريقها إلى الساحات والجدران وصفحات الجرائد، لتشكو إلى بارئها ظلم القتلة ولتعلن عن جرائم لا دافع لها غير الشر وتعمد إيذاء هذا الوطن والشعب بحرمانه من أحد أهم عوامل تطوره وتعافيه، وصار الأمر واحداً من شواغل الناس وهمومهم، بل من أهم القضايا التي تشغل الرأي العام العراقي إضافة إلى قضايا الاقتصاد والامن والسياسة.

وقد حدث لي أن راجعت أحد الاطباء منذ فترة عارضاً عليه فحوصات طبيب متخصص آخر، أخذ الأوراق مني وبسرعة وجه إليّ سؤاله: أما زال الدكتور (....) موجوداً في العراق؟ وكان المعني استاذاً في كلية الطب وجراحاً متخصصاً في الجملة العصبية، ليعكس بسؤاله الوجه الآخر لعمليات الاغتيال والاختطاف والتهديد.

ان هذا القتل المقصود هو وسيلة تصفية في الشكل المعلن لكنها تحقق تصفية أخرى بشكل ثان هي ارعاب من لا يوجه اليهم الرصاص، فيعمد كثير من البقية إلى المحافظة على النفس والأهل بالهجرة إلى أرض فيها أمن واستقرار ورزق مضمون، فتحرم بذلك أجيال ممن يعلمها ومرضى ممن يعالجهم ومشاريع لا ترتفع لأن مخططيها والقائمين عليها لم يعودوا قادرين على متابعتها.

اليونسكو ترصد

لم تفت هذه الظاهرة الدموية الجديدة عن بال العالم المتحضر، فالمنظمة الدولية للتربية والثقافة والعلوم (اليونسكو) ثبتت في تقرير أعدته منتصف هذا العام، حقيقة ان ارتفاعاً ملحوظاً سجل في السنوات الثلاث الماضية في وتيرة الاعتداءات وعمليات الاغتيال والخطف والتعذيب التي تطال الاوساط التربوية في العراق، وأساتذة الجامعات في مقدمتهم. ومنذ نيسان ٢٠٠٣ وحتى اعداد التقرير المذكور قتل (٢٨٠) استاذاً جامعياً، وبالتأكيد فان الرقم قد يصل إلى (٣٠٠) شهيداً، ولنفس الفترة ترك أكثر من (١٥٠٠) باحث واكاديمي وطنهم.

وحسب رابطة المدرسين الجامعيين في تقرير سابق لها فان هناك (١٩٠) شهيداً من الاساتذة والعلماء وتلقى اكثر من (٣٠٠) آخرين تهديدات بالقتل والخطف. ولا توجد احصائيات دقيقة عن عدد الأساتذة والاطباء والمفكرين والعلماء العراقيين الذين غادروا العراق منذ أربع سنوات مضت. فيما كشفت وزارة الصحة عن اغتيال اكثر من (٢٠٠) طبيب بمختلف الاختصاصات. وقال مفتش الوزارة العام ان الاطباء يتعرضون بشكل متزايد لعمليات الاعتداء والقتل والاختطاف رغم جهود الوزارة في محاولة منع ذلك لكنه اعترف بعجزها لوحدها عن تأمين الحماية لهم.

وفي محاولة للاقتراب من ظاهرة استهداف الكفاءات قام باحثون وبعض الجهات المعنية ومنظمات المجتمع المدني بتنظيم احصائيات اشرت إلى حد ما يجري، فوجدوا أن ٥٠٪ من العقول والكفاءات المهاجرة هم من الاطباء المتخصصين وبعضهم يدرس في كليات الطب ومعاهده، و٢٣٪ من المهندسين بكافة الاختصاصات الهندسية فيما شملت نسبة ٢٧٪ التخصصات العلمية الاخرى التي تمثل البنية العلمية الاساسية للبلد.

صحيح ان اعداداً من الكفاءات هاجرت قبل ٢٠٠٣ جراء ضغوطات النظام السابق، فتركت بلدها مضطرة لتلقى القبول والترحاب من الدول العربية والاجنبية كاستثمار جاهز ورغم انهم يمثلون مشاريع عودة محتملة باستقرار الاوضاع ومنحهم ما يستحقون، لكن العدد الاكبر والشكل الاخطر الذي يستهدف الحياة نفسها، والتصفية الجسدية، ظهر بعد سقوط النظام المذكور عام ٢٠٠٣، حيث تعددت الجهات التي تستهدف الكفاءات العراقية على اختلافها، وبعض هذه الجهات معروف رسمياً وشعبياً، بعد أن صار العراق ساحة لنشاط العشرات من اجهزة المخابرات القادمة من خلف الحدود، والتي تنصب جهودها في مواصلة تدمير العراق وعرقلة مسيرته العلمية والتنموية وجعل الهوة تتسع بين ماضيه المليء بالانجازات الحضارية ومستقبله المشروع في ان يواصل مسيرته ويؤكد وجوده الانساني المتميز فيما يبني حاضره على وفق احتياجاته وتطور الحياة، مستخدمة المرتزقة وسقط المتاع والنكرات التي تعيش كالبهائم باحثة عن مال حرام ملوث بالدم.

والعملية بالتحليل المنطقي والعلمي لا تخلو من فائدة لبعض أو كل من يقوم بها، غير ايذاء العراق والحاق أكبر وأقسى الخسارات به، فحين تقتل كفاءة أو تختطف غيرها، ستجعل عشرة أخرى تصاب برد فعل سلبي يدفعها بغريزة البقاء لكي تبحث عن منفذ للخلاص يتمثل اليوم في اسلوب واحد هو الهجرة، وهنا تتحقق الفائدة لمن يقوم بالاغتيال والخطف والتهديد.

فكيف يكون ذلك؟ حين يستقطب بلد ما قريب أو بعيد، كفاءة عراقية يكون قد ربح لا علماً فقط، ولكن مالاً وفيراً واختصر زمناً طويلاً. يقول استاذ عراقي من خلال احصائية ميدانية وتوثيق تاريخي، ان كلفة تدريس وتخرج طالب في كلية الطب العراقية تبلغ اكثر من (٤٥) ألف دولار باسعار عقد السبعينيات. وفي دراسة اعدتها منظمة الطاقة الذرية العراقية عام ١٩٨٩ قدرت كلفة دراسة الحائز على شهادة الدكتوراه في العلوم والتكنولوجيا بمبلغ (١٤٠) الف دولار. وفي دراسة أخرى قدرت كلفة هجرة (١٧٥٠٠) حامل شهادة ماجستير و(٧٥٠٠) حامل شهادة دكتوراه بـ (٤٥٥٠) مليون دولار، بينما بلغت كلفة استقطابهم (١١٢٥) مليون دولار، وهذا يعني ان العراق قد وفر لتلك الدول ما يصل إلى (٣٤٢٥) مليون دولار، اضافة إلى اختصار مدد زمنية تتراوح بين (١٥ - ٢٠) عاماً لها واحتياج العراق لنفس الفترة لتعويض هجرة مائة طبيب متخصص.

ويورد د. ظاهر محمد في بحث منشور له ارقاماً تبعث على القلق، فخلال الفترة من ١٩٩١ - ١٩٩٨ بلغ عدد المهاجرين العراقيين من اصحاب الكفاءات إلى الولايات المتحدة وكندا وأوربا الغربية فقط (٣٧٥٠) عالماً وكفاءة فهم ٧٦٪ استاذ جامعة و٢٣٪ من العاملين في مراكز الابحاث العراقية المختلفة، من بينهم ٨٣٪ تخرجوا من الجامعات الاوربية والامريكية. وشهدت الموجة الثالثة والاخيرة من الهجرة التي حدثت بعد ٢٠٠٣ مغادرة أكثر من ثلاثة آلاف استاذ جامعي، وان ١٠٪ من اجمالي عدد الاطباء في العراق والبالغ (٣٢) ألف هاجروا في نفس الفترة.

***العراق يوفر للدول الاخرى عبر هجر كفاءاته (٣٤٢٥) مليون دولار وعشرين عاماً من الدراسة والاعداد.**

وحسب دراسة لليونسكو تسهم ثماني دول عربية من بينها العراق في تقديم كفاءات جاهزة إلى اوربا والولايات المتحدة تصل إلى حوالي (١٠٠) ألف سنوياً.

وتقدر دراسة عربية ان تعلّم وتدريب العالم الواحد يكلف بالحدود الدنيا نحو عشرين ألف دولار باسعار عام ١٩٧٢ وإذا أضيفت فروقات الاسعار الحاصلة في الأسواق العالمية للسنوات اللاحقة تصبح الكلفة مضاعفة لعدة مرات، وأشرت دراسة حديثة الخسائر المادية العربية بسبب استمرار ظاهرة هجرة العقول العربية بما يصل إلى (١,٥٧) مليار دولار سنوياً.

هولاكو يعود

إن قيمة كل ما هو مادي تتضاءل أمام القيمة التي يمثلها العنصر البشري في تحقيق أي منجز أو تنمية لأي مجتمع يروم التقدم ومواكبة التطور الحضاري. وتمثل الكفاءات عالية المستوى طليعة العناصر البشرية التي ينبغي وجودها في تلك المجتمعات لتحقيق اهدافها وطموحاتها. وقد عرف العراق بمنجزاته الحضارية منذ آلاف السنين التي صنعتها عقول مبدعية والتي أسهمت في وضع اللبنات الاساسية للحضارة الانسانية، وتنوعت هذه المنجزات في ميادين شتى كالعلوم المختلفة وانظمة الري والقوانين والفنون، وتواصل العطاء العلمي العراقي مثيراً حفيظة البعض من البرابرة والمتخلفين حتى احتلال بغداد من قبل مغول هولاكو، وتدميره لكل معالم الحضارة وقتلة العلماء والمفكرين واتلاف المصادر العلمية والمنجزات العقلية المتقدمة.

واليوم تتكرر حالة استهداف العقل العراقي في دورة تاريخية مشوهة، من خلال عمليات الاغتيال والاختطاف والتهديد والتهجير، ويعود هولاكو من جديد متقمصاً أشكال مئات وآلاف القتلة من احفاده الذين يتحركون كالاشباح دون إثارة أية شبهة حتى ينجزوا فعلهم الاجرامي ويتواصلوا مع هولاكو بخيط الدم البريء، عارفين أن ما يفعلونه هو احداث نزف علمي يلقي بظلاله السوداء وتأثيراته السلبية على العملية التربوية والعلمية والتنموية، وعلى الاجيال اللاحقة، حيث لا يخفى على الجميع صعوبة اعداد كفاءات جديدة لأسباب عرفناها تتعلق بالوقت والجهد والمال.

اندحار التخلف

ان الحقيقة المرة ماثلة اليوم أمام الأعين، بما حققته عمليات استهداف الكفاءات من نتائج خسارة وخسارات واضحة، فالكثير من الكليات والجامعات في عموم العراق تعاني من نقص واضح في اعداد التدريسيين مما القى باعباء اضافية على عواتق الملاكات المتبقية فازداد عليها ضغط العملية التدريسية وساعاتها والجهد البدني والنفسي الذي تتطلبه، إضافة إلى الضعف الذي شاب هذه العملية وألحق الضرر بالمستوى العلمي لعشرات الآلاف من طلبة الجامعات الذين يتطلع إليهم المجتمع كبناة مستقبل له. وفي اعتصامات ومسيرات الاساتذة والطلبة بين فترة واخرى في العاصمة والمحافظات احتجاجاً على ما يحدث، شكل من اشكال الادانة وتعبير عن الرفض والاستهجان لهذا العنف الدموي والمادي ضد حملة العلم ومبدعيه.

***اليونسكو والصحة: استشهاد (٢٨٠) استاذاً جامعياً و(٢٠٠) طبيب واختطاف (٤٠٠) وهجرة آلاف العقول في مختلف التخصصات العلمية والطبية والفكرية.**

يقول استاذ جامعي شارك في واحدة من هذه الفعاليات، ان تصفية العقول والكفاءات والقدرات الثقافية والطبية والهندسية والتعليمية، واجبار الباقي على الهجرة هو ارهاب متعمد ومخطط له تقوده قوى خارجية معادية، وتشارك فيه مجاميع داخلية من القتلة المرتزقة، بهدف تفتيت كيان البلد وتمزيق نسيجه الاجتماعي ودفعه إلى مزيد من الضعف والتخلف. إنها عملية إبادة جماعية منظمة ومتواصلة، انها حوار المتخلفين مع رجال العلم والفكر، وسيلته الرصاص وحبره الدم لأنهم اتفه من ان يكونوا أنداداً لضحاياهم.

ان غالبيتنا تحس بان عليها ان تواجه هذا العنف بقوة الحق والاصرار على مواصلة مسيرة العلم والحياة لانها القاعدة وما يحدث هو استثناء زائل بعون الله.

خسائر قاتلة

ولأنها تتسع وتتواصل دون ردع كاف أو مواجهة فاعلة، فان ظاهرة استهداف الكفاءات اصبحت شاغل جهات معنية في الداخل والخارج، وقد كتبت عنها الكثير وعقدت لأجلها الندوات والمؤتمرات، ورفعت المقترحات والدعوات من المعنيين أنفسهم، فهم أدرى بالحال، خاصة وان فقدان الكفاءات العراقية حالة توصف علمياً بالتصنيفين الثاني والثالث، أي انها خسارة لا يمكن انتاجها مرة أخرى، وتعويضها يحتاج زمناً طويلاً وجهداً كبيراً ومالاً كثيراً، ونذكر هنا ما أعلنته وزارة التعليم العالي والبحث العلمي قبل أشهر قليلة عن قيامها باغلاق (١٥٢) قسماً علمياً في كلياتها لعدم توفر الملاكات التدريسية اللازمة لها، وان اقساماً علمية أخرى بالعشرات قد علقت الدراسة فيها لذات السبب وهو النقص في الدرجات العلمية العالية كالاستاذ والاستاذ المساعد، ونجد نفس الحالة في وزارة الصحة حيث تعاني المستشفيات المتخصصة في الجراحة الدقيقة من نقص واضح في الاطباء المتخصصين وبالذات في طب وجراحة القلب والعيون والجملة العصبية وزرع الكلى، مما عاد بالضرر على آلاف المرضى الذين يحتاجونهم لمعالجتهم وإدامة حياتهم، واضطرار الكثيرين منهم للسفر إلى دول مجاورة للمعالجة وإجراء الجراحات المطلوبة. وينسحب الامر ذاته على المجالات التنموية الاخرى، فوزارة الري ترجع بعض اسباب تعطل أو تدهور مشاريعها إلى مغادرة الكفاءات العلمية فيها إلى الخارج، بل ان الوزير ذاته أعرب عن قلقه من هجرة الملاكات الفنية المتخصصة واصفاً تعويضها بشبه المستحيل وان هذا الوضع يتسبب في تعطيل المشاريع الاروائية التي تشهدها كافة انحاء البلاد. ونجد ذات الشكوى في وزارات أخرى كالزراعة والصناعة والنقل والتربية والنفط وغيرها، وهي تعاني من الأضرار التي تولدها هجرة الكفاءات المتخصصة فيها إلى الخارج على ما هو قائم من مشاريعها أو المخطط لإقامتها.

***ان هجرة العقول العراقية تعكس خسارة فادحة واستنزافاً لشريحة مؤثرة وفاعلة في المجتمع اذ تمثل اقتطاعاً من حجم القوة العلمية النادرة.**

استطلاع ميداني

ونجد في صحف ومجلات غربية تقارير واستطلاعات تثير الأسى والقلق لتنامي ظاهرة فقدان العقول العراقية، وفي منتصف هذا العام أجرت مجلة (نيوزويك) الامريكية استطلاعاً ميدانياً بعنوان (الهجرة الصامتة بعيداً عن العراق.. العقول من يحميها؟) التقت فيه عشرات الاطباء والاساتذة الجامعيين والمهندسين في الاردن، ليرووا للعالم معاناتهم داخل وطنهم، كيف اغتيل بعض زملائهم، واختطف آخرون، وتلقوا هم التهديدات، فقرروا الرحيل مضطرين تاركين ليس بيوتهم وممتلكاتهم فقط، ولكن احلامهم المشروعة في وطنهم وذكرياتهم التي تنتشر في كل الأمكنة.. بيوتهم، كلياتهم، مراكز بحوثهم، مستشفياتهم.

واكد كاتب الاستطلاع (ستيفن غلبن) ان العراق كان يفاخر في وقت ما بما لديه من مستشفيات وجامعات ومختبرات علمية ومعارض فنية. وقد تم اعداد مهندسي الخطوط الجوية العراقية على سبيل المثال للعمل على احدث الطائرات المعروفة عالمياً ومنها البوينغ ذات التكنولوجيا الحديثة. وذكر طبيب عراقي للصحفي الامريكي ان اقل من ثلث الاطباء قد بقوا في الداخل وان الامر يتطلب ما لا يقل عن عشر سنوات لاعادة بناء قطاع الرعاية الصحية في العراق، والامر نفسه يمكن ان يقال بالنسبة للجامعات، فبرامج الدراسات العليا لم تعد موجودة في الكثير من الكليات ولعدم توفر الاساتذة يقوم المدرسون المساعدون بتولي تلك المهمة. ويعترف المراسل الأجنبي أنه صار من الصعب تحديد المدى الزمني أو التأثيرات المحتملة لهذه الملحمة الطويلة (كما أسماها) من هجرة العقول العراقية على مستقبل البلاد، فقد أضعفت مغادرة الفئات المثقفة بلاد الرافدين البنية التحتية البشرية مكملة بذلك الدمار المادي الذي خلفته الحرب، ويتساءل هل يثبت هؤلاء حقاً بأنهم آخر فصول الخراب في العراق، ولكنه يعاود القول ان من المتوقع ان تتفاقم ما أسماها مشكلة تسرب العقول الوطنية نحو الخارج، وكل هذا سيترك مستقبل البلاد مستنداً إلى عدد ضئيل من الملاكات ذات الخبرة لديمومة الامور في ادنى المستويات.

ان الجيل الجديد من العراقيين الذين ما زالت اعمارهم دون الثلاثين يعاني اليوم الحرمان من أساتذته واطبائه الذين يقدمون له الرعاية الكاملة والنصح والاهتمام ويمثلون عنده النموذج الصالح لتسيير امور مجتمع مدني نشيط، ونلمس في ما تبثه الفضائيات من برامج ولقاءات تجرى في أروقة الجامعات العراقية، مشاعر الحب الحقيقية الصادقة والتقدير والاحترام العاليين من قبل الطلبة لأساتذتهم وحزنهم وألمهم حين يفقدون واحداً منهم، وهي تمثل علاقة نادرة لا تتوقف عند تحقيق المنفعة الذاتية، ولكن تعكس مستويات الصداقة والاخوة والابوة بين طرفي العملية التربوية والعلمية: الاستاذ والطالب، والتي يتميز بها العراقيون وحدهم.

استذكارات الحزن

ومن بعض مظاهر ما يلقاه رجال العلم والفكر من عنف حالياً وانعكاساته الاجتماعية تلك الأستذكارات السنوية أو بين فترة واخرى، والتي تأخذ عند الاهل والاقارب شكل الاعلان في الصحف أو الخاطرة الحزينة والمرثية المؤلمة، التي يكتبها أب مظلوم أو أم ثكلى أو أخ حزين، مرفقة بصورة للفقيد الذي يحبون، واستعادة لمناقبه وعلمه واحلامه التي وأدتها رصاصات الحقد والجهل.

هنا يقرأ متابع الصحف واقع الحال عبر سطور وكلمات الحزانى، بل حتى في أبيات قصيدة رثاء تستذكر المحاسن وتستعظم المصاب، فلا يعود المرء قادراً على نسيان أو تجاهل هذه الظاهرة المؤلمة التي تتكرر على فواصل زمنية ليست متباعدة، وقد يعتبر البعض ان النشر بهذا الشكل أفراز منها ومكمل لها، يمكن لباحث نفسي أو اجتماعي ان يتوقف عندها بالدراسة والتحليل واستخلاص المؤشرات، التي تتفاعل فيها لواعج النفس بالمؤثرات الاجتماعية، وعندنا نحن ابناء هذا الوطن خزين من حزن يبحث دائماً عند منفذ ولو صغير لكي يتدفق مثل نهر لا تتوقف مياهه، وربما يكون استهداف الكفاءات بالموت والاختطاف عامل حزن مضاف إلى أرثنا الاجتماعي والفكري والنفسي، سيجد له مكاناً يوماً ما على صفحات المصادر والكتب بحوثاً ودواوين شعر وروايات.

وتجد هذه الكتابات صداها عند المتلقين ممن يقرأونها على مختلف مستوياتهم من شرائح وفئات الرأي العام، مجسداً في تعاطف كلي يتحول إلى تبادل أخبار ومعلومات ومناقشات ولوم لمن لا يستطيع أن يحمي المبدعين من شر القتلة والمجرمين وتساؤل مشروع عن الوقت الذي ستأخذه هذه الظاهرة والمدى الذي ستصله والكيفية التي ستصير اليها حتى تتوقف نهائياً وتصبح جزءاً من ماضٍ لا يريد أحد أن يتذكره، لانها ستكون نقطة سوداء في صفحة بيضاء من تاريخ ومواقف مشرفة.

وفي مجلس عزاء احد المهندسين من ضحايا عصابات الموت حدثني شيخ بجانبي عن ابنه الطبيب الذي اختطف ودفعت فديته لكنه قتل رغم ذلك، لا أنسى نشيج الوالد وهو يصف رغبة ابنه منذ الصغر في ان يكون طبيباً متخصصاً في العيون لكي يعالج والدته ووالده، كما كان يردد أمامهم تعبيراً عن حبه وامتنانه لهم، لكن خطواته الاولى على هذا الطريق أوقفتها رصاصات الغدر مخلفة خسارة وحزناً.

ومثل هذه الاحاديث وردود الافعال نجدها في كل ارجاء العراق ليس منطلقها التعاطف المجرد وحده، ولكن الحب والحزن الذي ينتاب مشاعر العراقيين، وهم يمثلون رأياً عاماً معروفاً بتأثيره، إزاء واحدة من أخطر القضايا التي يواجهونها إلى جانب غيرها من القضايا التي تمثل معاناة حياتهم الحاضرة، فتسمع أحاديث التضامن والألم في الأسواق وسيارات النقل والأزقة كما تقرأ مثلها في الصحف والمجلات وتشاهدها على شاشات التلفاز على مدار الأيام، ويدرك الناس بمختلف درجات الوعي، ان فقدان أي رجل منهم سيحرم ابناءً لهم أو أخاً من فرصة للتعلم وبناء مستقبله، وانهم وان لم يكونوا على صلة قربى مباشرة بمن يصيبه الغدر، خاسرون في كل الاحوال افراداً ومجتمعاً، داعين اصحاب المسؤوليات إلى بذل مزيد من الجهود لحماية الجامعات وكل الكفاءات الموجودة، لانهم ثروة وطنية بل هم أغلى من كل الثروات الأخرى.

كيف نحميهم ونسترجعهم؟

في ظل الظروف التي يعيشها العراق منذ سنوات والمعروفة بتعقيداتها وسلبياتها، وضرورات تلافي اخطاء ومعرقلات وأرث الماضي لمسنا كيف تتزايد الحاجة إلى كل عراقي مبدع قادر على تقديم العطاء في كل مجالاته واعادة اعمار الوطن وتجسير الهوة التي تفصله عن التطور الذي حرم منه، وجسامة فقدان هذا العقل، فليس أقدر من أهل الوطن على بنائه بمحبة واخلاص ولا يمكن لخبير أو كفاءة علمية اجنبية ان تكون بديلاً حقيقياً عنه، فتعطي من المردود والنتائج الايجابية مثله.

هنا لا بد من طرح السؤال الضروري الذي يملأ حرم الجامعات وقاعات الدراسة والمؤسسات الصحية ومواقع المشاريع هو: ماذا نفعل للمحافظة على الكفاءات الموجودة التي يتأرجح فوق رؤوسها (سيف ديموكلس) المعلق بشعره لكي تتمكن من مواصلة دورها الوطني والانساني والتاريخي، ونستعيد المهاجرين منهم؟ وكيف؟

لا شك ان المهمة ليست بالسهولة المتصورة، ولكن ذلك لا يعني التخلي عن هذه المهمة المقدسة، وهو ما يتطلب جهداً جمعياً تشترك فيه الدولة بمؤسساتها اولاً والمجتمع والجامعة والمواطن ذاته، وهذا ما يستوجب الحرص على هذه العقول كثروة وطنية عالية القيمة، وكل الاطراف المعنية مطالبة بوضع نظام حماية كفوء تتشكل اطرافه ومقوماته من فعل مادي وفكري ملموس ومتنوع ويتكون نسيجه من قدرات أمنية وتوعية اجتماعية واستقرار معيشي وحيطة ذاتية وامكانات ردع سريعة عالية المستوى يجب ان تتوفر إن لم تكن موجودة، ونظام عقوبات بأعلى الدرجات تنفذ دون ابطاء بحق من يتطاول على قداسة العلم ممثلاً برجاله في المجالات كافة، ليكونوا عبرة لغيرهم من المجرمين والقتلة وعامل ردع مشروع ومبرر سواء في تعاليم السماء أو القوانين الوضعية. ولسنا هنا في معرض التفاصيل فهي من مسؤولية الجهات ذات العلاقات بقدراتها المهنية وخبراتها العلمية، ولعل في تحقيق المزيد من الاستقرار الامني واحداً من المعالجات المطلوبة.

يقول ناصر سعيد من تجمع التدريسيين الجامعيين ان الكفاءات وأساتذة الجامعات هم ثروة البلاد البشرية ولا بد من المحافظة عليها وايقاف النزيف الذي تتعرض له هذه الطاقات هي المهمة الاولى، والمهمة الثانية هي توفير الفرص والظروف الملائمة لاستعادة من هاجر منها، وهذه المهمة لا بد أن تأخذ الاولوية خاصة ونحن بحاجة لهذه الطاقات اكثر من أي وقت مضى، وان الشعوب التي تحترم علماءها ومفكريها وخبراتها الوطنية توفر لهم كل الظروف المناسبة للابداع والعمل الحر وهي شعوب حية ومتطورة.

غير ما تقدم، هناك العديد من المقترحات والمعالجات التي يطرحها اصحاب العلاقة ويمثله من بقي في الداخل أو الغربة، ومنها توفير العيش اللائق للمعنيين في السكن والنقل ومتطلبات الحياة، تطوير امكاناتهم بالايفاد والمشاركات الخارجية، وتوفير مستلزمات العمل التدريسي والمختبرات المتطورة، واحتساب سنوات الخدمة خارج الوطن للاستاذ الجامعي، وتقديم تذاكر سفر مجانية للراغبين بالعودة والموقع المناسب والسكن الملائم، الحرص على راحتهم البدنية والنفسية، وفي العديد من البلدان الاجنبية والعربية (يجبر) الاستاذ الجامعي على التمتع بإجازة شهرية أو فصلية تعيد له الصفاء الذهني وتبعد عنه الارهاق اليومي، تحسين خدمات ووسائل الراحة بل وابتكار الجديد منها لهم، تحقيق العدالة والتواصل في الحوافز المعنوية والمادية وتشجيع التفوق العلمي، وترك وسائل وأساليب العمل الاداري التي أثبتت التجربة تخلفها والروتين الذي يصاحبها واستبدالها بوسائل اكثر حداثة وفائدة.